النقد والحركة الشعرية
في
صدر الإسلام

د/ عبد القادر هنّي

من المعلوم أن الإسلام جاء ليغير ضربًا من القيم والمثل والتصورات. وأنماطًا من العلاقات كانت سائدة في الحياة الجاهلية، فإذا رجعنا إلى بعض أي الذكر الحكيم فإننا نرى في وضوح أن المولى عزّ وجل ينكر على الجاهليين كثيراً من عاداتهم وطرق تفكيرهم وما كانوا متشبثين به من أباطيل، قال تعالى في سورة النحل: " ويجعلون لما لايعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به، أيمسكه على هون أم يَدُسُّه في التراب ألا ساء مايحكمون"(1). وقال في آل عمران: "وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله: (2)" . أما في سورة الأنعام فقال جلت قدرته "وجعلوا لله ماذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا. فما كان لِشركائهم فلا يصل إلى الله وماكان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء مايحكمون" (3). إلى آيات كثيرة أخرى لايمكن حصرها في هذه العجالة تصور الآفات والعادات السيئة التي تفشت بينهم، فأراد الربُّ الرحيم أن ينقذهم من تيههم وضلالهم فأنعم عليهم بنور الإسلام الذي جاءهم بقيم ومثل جديدة ورسم لهم منهجًا قويماً إن ساروا على مناكبه وصلوا إلى برٍّ الأمان، قال ابن فارس يصور المجتمع الجديد الذي صاغه الإسلام: "كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم ونسائكهم وقرابينهم، فلما جاء الله- جل ثناؤه- بالإسلام، حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع أخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت، فعفى الآخر الأول وشغل القوم

بعد المغاورات والتجارات وتطلب الأرباح والكدح للمعايش في رحلة الشتاء والصيف وبعد الإغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه. تنزيل من حكيم حميد، وبالتفقه في دين الله عزّ وجلّ وحفظ سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الإسلام، فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشؤوا هم عليه كأنه لم يكن وحتى تكلموا في دقائق الفقه وغواض المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي دوّن وحفظ حتى الآن" (4).

فإذا كان نص ابن فارس يتجاوز في تصويره أثر الاسلام في تغيير صورة المجتمع الفترة التي نتناولها، فإن الذي لاريب فيه أنه يوضح لنا أيضا التحولات التي حدثت فيه في صدر الإسلام، وهي تحولات عميقة كان هدفها خلق مجتمع تتوارى فيه الفوضى التي رانت في ربوعه أحقابا طويلة، وتنتفي عنه جميع التناقضات التي نخرت أساسه وقوضت بنيانه في العهد السابق.

وتأسيساً على هذه الغاية التي رسمها الإسلام لنفسه قصد تغيير حياة الناس تغييراً جوهرياً لبناء مجتمع متماسك وثيق العرى صلب البنيان لا مكان فيه للفرقة والتناحر والظلم وألوان الآفات القديمة التي شوّهت حقيقة الإنسان في المجتمع الجاهلي، كان اهتمام قادة الدعوة الإسلامية وسهرهم الكبير على توجيه جميع الفعاليات والانشطة الإنسانية لتتناغم مع الدستور الجديد الذي اختاره المولى عزّ وجل لعباده منهجًا في الحياة ومخرجًا من الفوضى العارمة التي طبعت حياة عرب ماقبل الإسلام، وعليه فإن الشعر بحسبه أرقى الأنشطة المعرفية التي عرفها العرب في جاهليتهم، كيما يحتفظ بمكانته في المجتمع الجديد، فإنه ينبغي أن يسير في الاتجاه الذي يتساوق مع روح الدستور الذي ينظم حياة هذا المجتمع، وعليه أيضا أن يعمل على ترسيخ القيم والمبادئ التي يدعو إليها هذا الدستور، معنى ذلك أنه على نقاد هذا العهد الذين كانوا على وعي كامل بخطر الشعر ودوره في المجتمع، أن يعملوا على توجيه الشعر هذه الوجهة ليتوافق مضمون رسالته مع الجهود الرامية الى تغيير الذهنيات والعقليات القديمة وطبع النفوس بالطابع الإسلامي.

والأصول الأولى لهذا الدور التوجيهي الذي سيمارسه النقد على الحركة الشعرية نلقاها في المفاهيم التي قدمها الرسول (ص) للشعر وفي مواقفه مما كان ينشد عليه، ونلمسها

أيضا في آرائه في بعض الشعراء، فقد أثرت عنه عليه الصلاة والسلام مجموعة من العبارات حدّد فيها مفهومه للشعر والنوع المستجاد منه، منها قوله: "إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، ومالم يوافق الحق منه فلا خير فيه" [5]. وقال أيضا: إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب" [6]

إذ تأملنا هذين القولين فإننا نلاحظ أنه عليه الصلاة والسلام لاينظر إلى الشعر نظرة واحدة مهما اختلفت موضوعاته ومضامينه، إنما يرى أن هناك شعراً يتمشى مع الحق وهو المستحسن لديه وهناك نوع آخر يرفضه لخروجه عن الحق وهذا الصنف يندرج عنده في الكلام الباطل الذي لاخير فيه، ومن هذا التصنيف الذي نستشفه من كلام رسول الله نتبين أن الشعر الذي ستتبناه الدعوة الجديدة وتشجع عليه هو ما وافق الحق والخير وانسجم مع روح الإسلام وغايته في صياغة الحياة على نمط جديد من القيم والمثل. والتمييز بين هذين اللونين من الشعر يعد في حد ذاته دعوة الى جمهور المبدعين من المسلمين لتوجيه طاقاتهم الفنية لإبداع مايتناسب مع الغايات السامية للدعوة المحمدية والإعراض عن الشعر الذي ألفوه في العهد السابق والذي كان يستمد أصوله من عادات وتصورات للحياة لاتتوافق والأسس الجديدة للمجتمع الذي يسعى الإسلام لتشييده، فهذا المفهوم للشعر الجيد الذي قدمه القائد الأول للدعوة الإسلامية يعد مَعْلمًا على طريق الحركة النقدية لتؤسس معاًييرها التي تقيِّم بها الشعر وتوجهه على هدي من مبادئ الدين الجديد الهادف إلى نشر الفضائل ومكارم الأخلاق وتطهير النفوس من أدرانها القديمة وإحلال الود والإخاء محل الأحقاد والإحن والضغائن التي غلبت على علاقات الناس في العصر الجاهلي، ومؤدى هذا أن الشعر ينبغي أن يستلهم رسالته من روح الإسلام ويعمل على التأليف بين النفوس المتنافرة المتدابرة لتقيم علاقاتها على التراحم والتعاون، لا على التنازع والتناحر حتى تتضافر الجهود لإعلاء كلمة الحق التي جاء الإسلام لتثبيتها وأحسب أن المفهومين المتقدمين يؤكدان هذه الوظيفة الجديدة التي أصبح الشعر مطالباً بتأديتها بعد أن كانت رسالته موجهة لتعميق هوة الخلاف بين الناس والدعوة إلى التطاحن وسفك الدماء وهتك أعراض الناس ونشر مفاخر أبعد ماتكون عن الرشد والحق، وتحريك العصبيات التي كانت وراء كثير من المآسي التي عانى الناس من ويلاتها آماداً طويلة أحيانًا، وقد لا أكون مجانبا للحقيقة إن ذهبت إلى أن الرسول (ص) كان يومئ إلى هذه

الرسالة الجديدة التي يجب أن ينهض الشعر بها ويعمل على تحقيق مضمونها حين قال: "الشعر كلام من كلام العرب جزل "تتكلم به في بواديها وتَسُلُّ به الضغائن من بينها"[7].

إن إسناد مهمة سلِّ الضغائن والأحقاد من النفوس الى الشعر يعني أن يعمل الشاعر على توجيه شعره ليؤدي وظيفة مغايرة لتلك التي كانت غالبة عليه في الجاهلية، أي أن يسعى إلى تحقيق المؤاخاة بين الناس ويوحد صفوفهم، ليعيشوا في توادد وتضامن وتراحم. بعد أن كان الصراع الدموي هو مايطبع حياتهم. وتوحيد المسلمين على هذا الأساس كان من أهم الغايات التي هدف الإسلام الى إنجازها، قال تعالى: "إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون"[8].

وإذا أمعنَّا النظر في مواقف الرسول (ص) من بعض ما كان ينشد عليه من شعر، فإننا نرى أنها كانت تعمل كلها على توجيه هذا الفن ذي الأثر البالغ في نفوس العرب الوجهة الصحيحة والعدول به : "عن طريقه الجاهلي بكل قيمه وصبغه بالصبغة الإسلامية ككل شيء آخر في حياة العرب بعد الإسلام" [9]. فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال يومًا لحسان بن ثابت: "أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية، فإن الله تعالى قد وضع عنا آثامها في شعره وروايته" فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن علاثة:

علقمُ مـــا أنت إلى عـــامـــر الناقض الأوتار والواتر

فقال له: "ياحسان لاتعد تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسك هذا". [10] إن الذي جعل الرسول (ص) ينكر على حسان إنشاده هذه القصيدة هو ما فيها من سباب وشتم وتمزيق للأعراض، على الرغم من أن ذلك كان قد وقع في عهد ولي، فكانَّ الترخيص بإنشاد هذا النوع من الشعر فيه تشجيع للشعراء على العودة إلى الخوض في مثله، وفي ذلك تعارض مع النهج الجديد الذي رسمه الإسلام للشعر وفيه تعارض من ناحية أمرئ مع القيم التي أراد أن يربي عليها النفوس.

ويدخل في مانحن فيه أيضا رأيه صلى الله عليه وسلم في امرئ القيس، فقد قال عنه: "إنه أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار" [11] فامرؤ القيس كان متفوقا على الشعراء في صناعة الشعر، لكن ذلك لايشفع له من وجهة النظر الإسلامية: لما يتضمنه شعره من معانٍ خليعة متهتكة ومن مجاهرة بالآثام والفواحش دونما حرج، معنى ذلك أنه لايكفي

للشاعر أن يتفوق فنيا ليستحسن شعره ويحظى بالقبول، إنما يحب أن يتناسب مضمونه مع القيم والمثل الفاضلة التي تحفظ للمجتمع وقاره وتجنبه السقوط في وحل الرذائل التي تنتهي به إلى التفكك والإنهيار.

وترى مثل هذه التسديد لخطى الحركة الشعرية وحملها على أن تستلهم رؤيتها من كتاب الله وتلتزم بما يقوي الشعور الديني ويعمقه في النفوس ويبصر الناس بأقوم السبل المؤدية إلى مافيه صلاحهم في دنياهم وفوزهم في أخراهم، ترى توجيه الشعر إلى مثل هذه الغايات في ملاحظات نقدية أخرى أثرت عن الرسول (ص)، فقد ذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء أن النابغة الجعدي أنشده قوله:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويَتْلُو كتابًا كالمجرة نيِّرًا
بلغنا السماء مجدنا وجُدُودنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فأنكر عليه الرسول الكريم هذا الفخر الذي يحمل في أطوائه نفحة جاهلية وأغضبه أن يعود شاعر مسلم إلى هذه المعاني البعيدة عن روح الإسلام الذي نهى الناس عن التفاخر بالحسب والنسب، وجعل مقياس التفاضل بينهم التقوي ليس غير، فسأله معاتبا منكراً عليه هذا المسلك في شعره: "إلى أين يا أبا ليلى؟" فقال: "إلى الجنة" وهنا إلتقت فكرة الشاعرمع الغاية التي يحث الإسلام الإنسان على بذل الجهد لبلوغها. وحينئذٍ فقط استساغ الرسول (ص) فكرته وأعلن رضاه عنها فقال: "إن شاء الله".[12] وعندما أنشده هذا الشاعر نفسه قوله:

ولاخير في حلم إذا لم تكن له ... بَوَادِرُ تحمى صفوة أن يكدَّرا
ولاخير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدَرا

أعجب رسول الله بهذه المعاني فقال له: "لايفضض الله فاك"، وإذا بحثنا عن أسباب استحسانه عليه الاسلام هذين البيتين، فإننا نجدها في توافقها مع معانٍ أراد الإسلام أن يعمقها في نفوس الناس بعد أن كاد تهورهم الذي لاتحكمه ضوابط من حلم أو تفكير أن يقضي عليهم قضاء مبرمًا في جاهليتهم، فكأني بالنابغة الجعدي وهو يصوغ معانية في هذين البيتين كان ناظراً كما قال الدكتور بدوي طبانة [13] إلى قوله تعالى: "خذ العفو

وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" [14]، وإلى قول الرسول (ص): "ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب" [15]

وقد نوّه عليه الصلاة والسلام بكل ما كان ينشد عليه من شعر اتفق مضمونه مع الأفكار التي جاء بها الإسلام ليغير العقليات ويعيد بناء النفوس على هدي من الأخلاق والمعتقدات التي تستمد أصولها من القرآن الكريم. فقد قال صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك: "مانسي ربك وماكان نسيا شعراً قلته" يريد قول كعب:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليغلبنّ مغالب الغلاب

واضح أن مردّ إشادة الرسول (ص) بهذا الشعر إلى موافقه فكرته للحق؛ وهو أن الله عزّ وجلّ غالب على كل شيء، مصداقاً لقوله تعالي: "والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لايعلمون" [16].

فهذا الشعر الذي استحق عليه كعب بن مالك حسن الجزاء في الآخرة يستوحي محتواه من كتاب الله العزيز الحكيم، وينسجم مع المفهوم المتقدم للشعر عند الرسول (ص) حين قال: "إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن ومالم يوافق الحق منه فلاخير فيه" [17].

ونفس هذا الكلام يمكن قوله على إعجابه بقول لبيد: "ألا كل شيء ماخلا الله باطل"، فقد وصفه بأنه أصدق كلمة قالها شاعر [18]، فمحتوى هذا الشطر من بيت لبيد لايخالف الحق من ناحية ومن ناحية أخرى ينسجم مع الفكرة الإسلامية عن الله عزّ وجل كما تشير إلى ذلك آيات قرآنية كثيرة. قال تعالى: "ولاتدع مع الله إلهاً آخر، لا إله إلاّ هو كل شيء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون" [19]، وقال في سورة الرعد: "له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال" [20]، إلى طائفة أخرى من الآيات تبيِّن كلها أن الله وحده هو الحق وأنه الخالق الذي لم يخلق والذي يسير الكون بإرادته، أما من دونه فإنهم ليسوا بشيء ولايمكن أن يضاهوه عزّ وجل في قدرته أو في فعلٍ من أفعاله.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الملاحظات النقدية الصادرة عن النبي (ص) والتي كانت

تهدف إلى ترشيد الحركة الشعرية في صدر الإسلام، وتبصير أصحابها بالرؤى التي ينبغي أن يصدروا عنها في معالجة القضايا المختلفة التي يتعرضون لها في أشعارهم، يمكن أن نضيف إلى ذلك إعجابه صلى الله عليه وسلم بشعر أمية بن أبي الصلت؛ لالتقاء معانيه مع كثير من الأفكار الإسلامية. فقد قال معبراً عن توافق مضمون شعر أمية مع الروح الإسلامية: "آمن شعره وكفر قلبه"[21]. ولم يخف إعجابه أيضا بالأفكار التي تضمنها قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به كريم المأكل

فقد قال بشأن صاحب هذا البيت: " ماوصف أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة"[22]. فإعجابه بهذا البيت وبعنترة كما يقول ختير عبد ربي: "إعجاب مبني على الإنسجام الحاصل بين فكرة البيت المبنية على الإباء والعزة وبين الفكرة الإسلامية التي تحث الناس على الإباء والشمم والاعتماد على النفس وتجنب لئيم المأكل" [23].

إن هذه الاراء والملاحظ التي كان يبديها الرسول (ص) فيما كان ينشد عليه من شعره جاهلي وإسلامي إنما كانت ترسم للشعراء النهج الذي ينبغي أن يسلكوه في إبداعاتهم، والذي إذا حادوا عنه وقعوا في تعارض مع الأفكار والقيم والمثل التي كان يدعو إليها الإسلام، فينطبق عليهم حينئذٍ قوله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترأنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون" [24]. وقوله عليه الصلاة والسلام: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أ يمتلئ شعراً"[25]، والشعر الذي قصده الرسول (ص) في كلامه هذا هو ذاك المتعارض- بطبيعة الحال- مع مفهوم الشعر الذي أومأنا إليه فيما تقدم.

وقد سار الصحابة رضوان الله تعالى عنهم على نفس هذه السبيل في توجيه الحركة الشعرية بما كانوا يبدونه من آراء وملاحظات نقدية في شعر الشعراء الجاهليين والإسلاميين، فالخلفاء الراشدون بحسبهم قادة الأمة وممثلي الفكر الإسلامي بعد الرسول عليه الصلاة والسلام، لم يبدوا عداء للشعر بل عنوا بحفظه وروايته وشجعوا على ذلك، غير أن تشجيعهم ذاك كان مشروطا بارتباط الحركة بأهداف الدعوة الإسلامية الرامية إلى

بناء مجتمع جديد يقوم -كما قدمنا- على الأخوة والتعاون والتراحم ونبذ الشقاق وألوان النزاع القديم الذي كانت ناره متقدة بينهم، وعلى إخلاص التقوى لله عزَّ وجل والدفاع عن القيم والمبادئ التي أراد الاسلام أن يرسخها في النفوس؛ ليطهرها من أدرانها ومما كانت تغلي به من ضغائن وأحقاد وفي هذا الاتجاه كانت تصبّ توجيهات الخلفاء الراشدين للحركة الشعرية كما يتجلى مما أبدوه من آراء واتخذوه من مواقف من الأشعار التي كان ينشئها معاصروهم أو تلك التي أنشئت قبل الإسلام، فأبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه على الرغم من أن النصوص التي بين أيدينا عن مشاركته النقدية في ترشيد الحركة الشعرية قليلة، فإن ما بجوزتنا منها يوضح أنه كان يستلهم آراءه في هذا المضمار من عقيدته الراسخة ومن نفسه المتشبعة بالإيمان والمتأثرة بتوجيهات الرسول(ص)، ففي رواية لصاحب الموشح[26] أن لبيداً أنشده قوله: "ألا كل شيء ما خلا الله باطل" فقال منوهًا بانسجام فكرته مع الفكرة الإسلامية عن الله جلت قدرته: "صدقت" وقد رأينا قبلاً أن الرسول (ص) كان له موقف مماثل من نفس هذا الشطر.

لكن حين أتم لبيدبيته بقوله: "وكل نعيم لامحالة زائل" أنكر عليه رضي الله تعالى عنه الفكرة، فقد قال: "كذبت! عند الله نعيم لايزول. والسبب الذي حمله على إنكار هذا المعنى هو تعارضه مع الفكرة الاسلامية عن النعيم الذي وعد الله عز وجلّ عباده المتقين به، قال تعالي: "يبشرهم ربُّهُم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم" [27]

فالملاحظتان اللتان أبداهما أبو بكر على بيت لبيد تبينان أنه كان يراعي في تقويم الشعر والحكم عليه مطابقة فكرته أو مخالفتها للرؤية الإسلامية ولما أقرّه الإسلام من عقائد وقيم ومثل رفيعه.

أما عمر بن الخطاب فمشاركته في نقد الشعر وتقويمه والأخذ بأيدي الشعراء ليعدلوا عمّا كان يخوض فيه أسلافهم مما يتعارض مع ماجاء به الإسلام كانت أوسع وأعمق من مشاركة غيره من الخلفاء الراشدين، فقد كان مثلا ينهي عن إنشاد شيء مما كان بين الأنصار ومشركي قريش من مناقضات؛ لأن في ذلك - كما روي عنه-: "شتم الحي بالميت وتجديد الضغائن، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء في الإسلام" [28]. وجدّدَ في

قصة مناقضة عبد الله بن الزبعري وضرار بن الخطاب الفهري حسان بن ثابت هذا الموقف فقال: "إني قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئا، دفعًا للتضاغن عنكم وبثٍّ القبيح فيما بينكم، فأمًّا إذا أبوا فاكتبوه واحتفظوا به، فدونوا ذلك عندهم" [29].

فهذان النصان مع أنهما لايتصلان بالنقد اتصالاً مباشراً، فإنهما من صميم الجهود الرامية إلى ربط الحركة الشعرية بغاية من أسمى الغايات التي هدف الإسلام إليها، وهي توحيد المسلمين وإنشاء مجتمع متلاحم لامكان فيه للنعرات والعصبيات وكل ما يتسبب في تصدع أواصر المودة وتفكك العلائق الحميمة القائمة بين الناس، وتبدو هذه الرغبة في وصل الشعر بروح الإسلام وتوجيهاته بدواً واضحًا في تقويم الخليفة عمر الشعر الجاهلي والإسلامي، فقد انشده رجل قول طرفة بن العبد:

فلولا ثلاث هنَّ من عيشة الفتى وجدِّك لم أحفِل متى قام عوَّدي

فقال رضي الله تعالى عنه: لولا أن أسير في سبيل الله وأضع جبهتي لله وأجالس أقوامًا ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب التمر لم أبال أن أكون قد متُّ" [30].

فالخليفة عمر ينكر الخصال الثلاث التي قصد إليها طرفة؛ لأنها خصال ذميمة من وجهة نظر الإسلام، بل تتعارض تعارضًا صارخاً مع قيمه، لذلك قابلها عمر بخصال ثلاث تتمشّى ومايدعو إليه الذين الإسلامي، وهي السير في سبيل الله والصلاة له ومجالسة أهل الأدب المنتقى[31]. فهذا الموقف في حدٍّ ذاته يعدُّ دعوة ضمنية إلى الشعراء للعدول عن المضامين التي تستمد من القيم والمثل والأفكار الجاهلية التي ألغاها الإسلام.

ويبرزلنا موقف الخليفة عمر من الهجاء ما كان يبدله من جهد للاتجاه بالشعر" اتجاهاً جديداً يفصله عن ماضيه الجاهلي ويصله بحاضره الاسلامي" [32]. فحين هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر بقوله:

دع المكارم لاترحل لبغيتها واقعد، فإنَّك أنت الطاعم الكاسي

شكاه الزبرقان إلى عمر بن الخطاب وأنشد عليه البيت المتقدم، فقال عمر ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة، فقال الزبرقان: أو ماتبلغ مروءتي إلاّ أن آكل وآلبس؟ فاستدعي عمر حسان ابن ثابت وسأله فقال: لم يهجه ولكنه سلح عليه؟ أي هجاه وأفحش في

هجائه. ويروى أنه سأل لبيداً في ذلك أيضاً فكان له رأي شبيه برأي حسان، فلما رأى من شهادة هذين الشاعرين أن البيت مؤلم أمر بحبس الحطيئة حتى تشفع له عمرو بن العاص فأخرجه الخليفة عمر وقال له: "إياك وهجاء الناس! قال إذن يموت عيالي جوعًا، وهذا مكسبي ومنه معاشي، قال عمر فإياك والمقذع من القول، قال وما المقذع؟ قال: أن تخاير بين الناس فتقول فلان خير من فلان وآل فلان خير من آل فلان، فقال فأنت والله أهجى مني، فقال عمر، والله لولا أن تكون سنة لقطعت لسانك" [33].

وتذكر المصادر القديمة للخليفة عمر موقفا شبيها بهذا الموقف من النجاشي الحارثي حين هجا بني العجلان، قال ابن رشيق: "وبنو العجلان كانوا يفخرون بهدا الإسم لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قرى الأضياف، إلى أن هجاهم به النجاشي فضجروا منه وسبُّوا به واستعدوا عليه عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فقالو: ياأمير المؤمنين هجانا، فقال: وما قال؟ فأنشدوه:

ولايردون الماء إلا عـــشـــيـــة ... إذا صَدَر الوُرَّاد عن كلِّ منهَلِ

فـقـال عـمـر، ذاك أقل للسكاك: يعني الزحام، قـالوا فـإنه قـال:

تعـاف الكلاب الضـاريات لحـومـهم ... وتـأكل من كـعب بن عـوف ونهـشل

فقال عمر: "كفى ضياعًا من تأكل الكلاب لحمه وقالوا، فإنه قال:

ومـاسُمّي العـجـلان إلاَّ لقـولهم ... خـذ القَعبَ واحلب العـبـد واعـجل

فقال عمر: كلنا عبدٌ وخير القوم خادمهم، فقالوا ياأمير المؤمنين،هجانا.

فقال: ما أسمع ذلك، فقالوا فاسأل حسان بن ثابت، فسأله فقال: ما

هجاهم ولكن سلح عليهم" [35]. فلما سمع عمر من حسان ماسمع سجن الشاعر. وقيل إنه حدّه. وذكرابن قتيبة أنه هدّده بقطع لسانه إن عاد إلى مثله.

فالعقاب الذي أنزله عمر بن الخطاب على هذين الشاعرين يعد ضرباً من الرقابة التي كان يمارسها النقد على الحركة الشعرية، حتى لاتنحرف عن الجادة الصحيحة وتغرق الناس من جديد في لجة الخصومات الكلامية القبيحة التي حرَّم الإسلام أمثالها؛ لأن شعر

الهجاء يتعرض للعورات ويهتك الأعراض والحرمات وينال من أخلاق المهجوين، وهذا كله يدخل في القذف الذي يعاقب عليه الدين الجديد.

ولاينبغي أن يفهم هذا الموقف من الخليفة عمر على أنه اغتصاب لحرية التعبير وتوجيه قسري للطاقات الفنية لتخدم أغراضا شخصية ضيقة. إنما موقفه هذا ينسجم مع تطلع الإسلام الى بناء مجتمع يسود فيه العدل بين الناس وينصف فيه المظلوم مهما كانت منزلته ومهما كان انتماؤه. فهجاء الحطيئة والنجاشي فوق مافيه من اعتداد بأخلاق الجاهلية ومعاييرها في تقويم الناس، فإنه فيه أيضا اعتداء على الآخر، ولابد للمعتدي حسب الشريعة الإلهية التي يحكم بها المجتمع الجديد من أن يردع ويلقي جزاءه، بصرف النظر عن أصله وحسبه ونسبه. وسحب قوانين المجتمع الإسلامي على الشعر في مثل هذا الموقف يهدف الى أن يجعل الشعر من أدوات البناء لامن أدوات الهدم، وليس في ذلك مايتنافى مع حرية التعبير التي تعد شرطًا أساسياً في أداء الشعر رسالته وقيامه بدوره الإيجابي في المجتمع. لأن القوانين التي تحكم المجتمع الإسلامي مستوحاه من مصدر إلهي لا يأتيه الباطل من بين يديه، فالحركة الشعرية الجديرة بالانتماء إليه لايمكن أن تكون لها أصول أخرى غير روح دستوره ولاغاية غير الغاية المرسومة له في هذا الدستور. ولا يتحقق لها ذلك إلاّ إذا كانت نفوس المبدعين متشبعة بالإيمان، فلا ترى حينئذٍ أي تنافر بين حريتها والتزامها بما يدعو إليه الدين، بل تجد حريتها في استلهام تعاليمه وعدولها عن كل ما يتنافر معها، بناء على أن السبيل المثلي المؤدية إلى الحق هي تلك التي رسمها ربٌ لطيف بعباده يعلم مافي نفوسهم ولايعلمون ما في نفسه، وتأسيساً على ذلك يكون تأديب عمر الحطيئة والنجاشي توجيها للحركة الشعرية لتكون لها مهمة إيجابية في المجتمع، وليس سلباً لحرية التعبير التي لاتقوم لأيٍّ فنٍ في غيابها قائمة، يؤيد ذلك وظيفة الشعر عنده كما نستشفها من جملة من أقواله قصد بها توجيه ولاته وأفراد أسرته حينا، وتوجيه الناس عامة حينا آخر، فقد روى ابن رشيق أنه كتب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري: "مر من قبلك بتعلم الشعر. فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب" [37]، وقال يخاطب ابنه عبد الرحمن: "يابني! أنسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك فإن من لايعرف نسبه لم يصل رحمه، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقا ولم يعرف أدبا" [38].

ويخاطب رعيته فيقول: "علموا أولادكم العوم والفروسية ورووهم ماسار من الأمثال وحسن من الشعر" [39]، وقال أيضاً: "أرووا من الشعر أعفه ومن الحديث أحسنه ومن النسب ماتواصلون عليه وتعرفون به، فربَّ رحمٍ مجهولة قد عرفت فوصلت ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها" [40].

إن هذه الأقوال في جملتها تنظر إلى الشعر على أنه أداة فعالة في بناء شخصية الفرد، فبروايته وحفظه يحسن سلوكه تجاه نفسه وتجاه الآخرين بما يكتسبه منه من فضائل. والشعر الحسن وحده هو الكفيل بأداء هذه المهمة. وحسنه مرتبط بتوافق محتواه مع الأخلاق الفاضلة التي إذا شبَّ عليها المرءُ عافت نفسه المساوئ والرذائل، وبذلك يسهم هذا الصنف من الشعر في تربية الناس وتنشئتهم على المحامد والمكارم التي دونها لايمكن أن يتوصل إلى تأسيس مجتمع سويٍّ بريءٍ من الآفات بأنواعها، معنى ذلك أن الشعر الذي ينبغي أن يعني به المسلمون هو ماسار في الاتجاه الذي يخدم مبادئ الإسلام وقيمه، لا ذلك النوع الذي يستوحى مثلاً وقيما بين الدين الجديد فسادها، فيكون السكوت عن الشعر المروج لها باسم حرية الفن فهماً خاطئًا لحرية التعبير ولممارسة الحريات الفردية لأن المبدأ في الإسلام أن يقول الإنسان خيراً وإلاَّ فليصمت وليس من الخير في شيءٍ كلام من مثل كلام الحطيئة والنجاشي في هجائهما السابق.

إلى مثل هذا الاتجاه الإيجابي كان عمر رضي الله تعالى عنه يوجه الحركة الشعرية إسوة بقول رسول الله (ص): "إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فحسن ومالم يوافق الحق منه فلا خير فيه" [41].

وهناك أمثلة أخرى من نقد الخليفة عمر تزيد وضوحاً هذا الاتجاه الجديد الذي أراد أن يدفع إليه الشعر، فمما يروى أن سحيما لما أنشد عمر قوله:

وبتنا وسادانا إلى علجانة ... وحقف تهاداه الرياح تهاديا

وهبَّت شمالا لا آخر الليل ... قرة ولاثوب إلا بردها وردائيا

فمازال بردي طيبًا من ثيابها ... إلى الحول حتى أنهج البُرد ُباليا

قال له: ويلك إنك مقتول[42]، فهذه العبارة تتضمن نهيا للشاعر عن التشبيب الذي فيه مساس بالحرمات والأعراض، لكن عندما أنشده قوله:

عـمـيـرة ودِّع إن تجـهـزت غـاديا كـفى الشـيـب والإسـلام للمـرء ناهيـا

قال له: "لو قلت شعرك كله مثل هذا لأعطيتك" [43]

وكيما ندرك مغزى كلام عمر بن الخطاب في هذا المقام، ينبغي أن نذكر بأن شعر سحيم كان يغلب عليه- كما هو الأمر في الأبيات السابقة- الرفث والإقذاع والفحش، معنى ذلك أن عمر أراد أن يحمل سحيما على أن يكون شعره كله من لون هذا البيت الذي التزم فيه بالفكرة الإسلامية، أو كما قال ختير عبد ربي: أراد " أن يحثه على ترك منهجه والاتجاه إلى الالتزام، ولذلك يرغبه بالعطاء[44]

يتضح من الجهود النقدية للخليفة عمر أنه حرص حرصًا شديداً على توجيه الشعر وجهة إيجابية تتواءم وتعاليم الإسلام ومايدعو إليه.

أما الخليفة عثمان، فعلى قلة ماوصلنا من نصوص نقدية عنه، فإننا نعتقد أن مشاركته التي كانت دون مشاركة عمر في هذا المجال، نظراً إلى الظروف التي حفت بفترة خلافته كانت تصب في نفس الاتجاه الذي رأيناه عند أبي بكر وعمر، ومما يلقي الضوء على ذلك استحسانه قول زهير:

ومـهـمـا تكن عند امرئ من خليـفة وإن خالها تخفي على الناس تعلم فقد قال فيه: "أحسن زهير وصدق لو أن رجلاً دخل بيتاً في جوف بيت لتحدث به الناس، قال: وقال النبي صلي الله عليه وسلم: لا تعمل عملاً تكره أن يتحدث عنك به" [45].

إن هذا الكلام يساعدنا على أن نتصور أن نوع الشعر الذي يفضله عثمان بن عفان والذي نتوقع أن يكون قد كان محوراً لجهوده النقدية في توجيه الحركة الشعرية، هو ماتساوق مع القيم والمبادئ الاسلامية، لأن كونه خليفة للمسلمين يستوجب عليه أن يكون أكثر حرصًا من غيره على حماية تلك القيم والمبادئ ويوجه جميع الأنشطة بما فيها النشاط الفني- لتستمد روحها منها، فقد روى له ابن سلام موقفا من شاعرٍ هجا امرأة مسلمة يصلح أن يكون شاهداً على رغبته في وصل الشعر بالواقع الإسلامي الجديد، فحين سمع الشعر الذي قيل في هذه المرأة قال يخاطب صاحبه في لهجة شديدة يتفجر منها الغضب: "ويلك ما سمعت أحداً رمى أمرأة من المسلمين بكلب غيرك، وإني أراك لوكنت على عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم لانزل الله فيك قرآنا، ولو أن أحداً قبلي قطع لسان شاعرٍ في هجاء لقطعت لسانك" (46)

فعلى قلة ما بأيدينا من المواقف النقدية للخليفة عثمان، فإن ماوصلنا من كلامه يشهد على أنه كان يدفع بالشعر ليستلهم المضامين التي تتناغم مع روح الاسلامية ونظرته إلى الإشياء والاحياء.

وقد سار الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على نفس هذه الطريق التي سلكها الخلفاء السابقون مهتدين بالرسول (ص) الذي رأينا في آرائه النقدية التي عرضناها حرصًا كبيراً على ربط الشعر بمسار الدعوة الاسلامية والعدول به عما يجعله أداة لنشر الفساد في المجتمع، فسعيا إلى نفس هذه الغاية نرى الإمام عليًا يوجه الشعراء إلى العناية بحفظ القرآن، فقد روى أبو الفرج الأصبهاني في الاغاني أن غالباً أبا الفرزدق جاء الى علي بن أبي طالب بالفرزدق بعد موقعه الجمل بالبصرة فقال له إن إبني هذا من شعراء مضر فاسمع منه فقال له الإمام علي: علّمه القرآن فكان ذلك في نفس الفرزدق فقيد نفسه وآلى أن لايحلَّ قيده حتى يحفظ القرآن(47).

وهدف الخليفة علي من دعوة الشاعر الى حفظ القرآن- كما يبدولنا- هو أن يصبح دستور هذه الأمة رافداً مهماً من روافد مادته الشعرية وملهماً له فيما يدعو إليه من قيم وأفكار ولا يقلل من أهمية هذا التوجيه عدم استيحاء الفرزدق معاني القرآن في أغلب شعره

وهناك موقف آخر للإمام علي يقدم لنا صورة عن تشجيعه الشعر المعبر عن أخلاق الإسلام وآدابه، فقد روى ابن رشيق أن اعرابيا جاء عليًا بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فقال: "إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك وإن لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال له علي: خطّ حاجتك في الأرض فإني أرى الضُّر عليك، فكتب على الأرض (إني فقير) فقال علي ياقنبر؛ أدفع إليه حلتي الفلانية، فلما أخذ هامثل بين يديه فقال:

كسوتني حلةً تبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حلل
إن الثناء ليحي ذكر صاحبه ... كالغيث يحي نداه السهل والجبلا
لاتزهد الدهر في عرف بدأت به ... فكلُّ عبدٍ سيجزى بالذي فعلا

فقال علي: ياقنبر أعطه خمسين ديناراً، أمّا الحلة فلمسألتك وأما الدنيانير فلأدبك"[48]

فعلي رضي الله تعالى عنه كافأ الشاعر بخمسين ديناراً لما لمسه في شعره من أدب يدل على كرم نفس صاحبه

أما عن جهود بقية الصحابة في دفع الحركة الشعرية إلى الالتزام بمبادئ الدعوة الإسلامية وغاياتها، فإننا نجد نموذجاً واضحاً لها عند ابن عباس- رضي الله تعالى عنه- الذي يعد أعظم شخصيات هذه الفترة علماً وأدباً ولم يكن علمه بالشعر وتذوقه للأدب بأقل من فهمه في الدين وتأويل القرآن الذي كان يقال عنه فيه: نعم ترجمان القرآن ابن عباس" [49].

إن الأخبارالتي وصلتنا عن إسهام ابن عباس في المجال الذي نحن فيه تبين أنه كان للشعراء بمنزلة المرشد الموجه الذي يأخذ بأيديهم ويبصرهم بالموضوعات والأفكار والقيم التي يجوز الخوض فيها والدعوة إليها، سعياً منه لصبغ إنتاجهم بالصبغة التي : "تباعد بينهم وبين ماضيهم الشعري الجاهلي، وتقارب تدريجياً بينهم وبين حاضرهم الإسلامي كي يستلهموا تعاليم الإسلام السمحة ويتخذوا من شعرهم أداة للتعبير عن قيمه الأخلاقية ومثله العليا"[50].

ويمكننا أن نورد قصته مع -الحطيئة - على طولها- لنلقي بعض الضوء على إسهامه في ربط الحركة الشعرية بالواقع الإسلامي، فقد جاء في الأغاني أن عبد الله بن عياش المنتوف قال: "بينا ابن عباس جالس في مجلس رسول الله بعد ما كفَّ بصره وحوله ناسٌ من قريش، إذ أقبل أعرابي يخطر[51] وعليه مطرف وجبة وعمامة خزٍّ سلَّم على القوم. فردوا عليه السلام، قال ياابن عمِّ رسول الله أفتني، قال فيماذا ؟ قال: أتخاف علي جناحًا إذ ظلمني رجل فظلمته وشتمني وشتمته وقصَّربي فقصرت به؟ فقال العفو خير ومن انتصر فلا جناح عليه، قال: يا ابن عمِّ رسول الله أرأيت أمراً أتاني فوعدني وغرَّني ومناني ثم أخلفني، واستخفَّ بحرمتي، أيسعفني أن أهجوَه؟ قالا لايصلح الهجاء، لابد لك من أن تهجو غيره من عشيرته فتظلم من لم يظلمك، وتشتم من لم يشتمك وتبغي على من لم يبغ عليك، والبغي مرتع وخيم، وفي العفو ماقد علمت من الفضل، قال صدقت، وبررت،

فلم ينشب أن أقبل عبد الرحمن بن سيحان المحاربي حليف قريش، فلما رأى الأعرابي أجله وأعظمه وألطف في مسألته وقال: قرّب دواك يا أبا مليكة والله لوكنت عرفتك عركت جانبك بعض ما كرهت من أمر الزبرقان كان خيراً لك، ولقد ظلمت من قومه من لم يظلمك وشتمت من لم يشتمك، فقال إني والله بهم يا أبا عباس لعالم، قال: ما أنت بأعلم بهم من غيرك قال بلى والله! يرحمك الله! ثم أنشاء يقول:

أنا ابن بجدتهم علماً وتجربة — فسَلْ بسعدٍ تجدني أعلم الناس

سعد بن زيد كبير إن عددتهم — ورأس سعد بن آل شماس

والزبرقان ذناباهم وشرهم — ليس الذنابي أبا العباس كالرأس

قال ابن عباس: أقسمت عليك ألا تقوم إلا خيراً قال: أفعل". [52]

فابن عباس ينكر على الحطيئة الخوض في الهجاء لمافيه من ظلم الأبرياء والاعتداء عليهم ويذكره بما فعله مع الزبرقان وإنزلاقه في هجائه إلى هجائه قومه ويقدم له كما يقول الدكتور عبد العزيز عتيق درساً في الحلم وضبط النفس ويحاول الحطيئة أن يقنعه بأنه بإمكانه أن يقصر هجاءه على خصمه دون أن يتجاوزه إلى أحدٍ من ذوي قرابته، غير أن ابن عباس لا يقتنع بذلك اهتداء بقول رسول الله (ص): "من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه" ويقسم عليه ألا يقول إلاّ خيراً فيعده الحطيئة بذلك[53]، معنى ذلك أن ابن عباس شأنه شأن الخلفاء الراشدين كان شديد الحرص على توجيه الحركة الشعرية لتتخلص من آثارالروح الجاهلية- التي نبذها الإسلام- ولتتماشى مع الدعوة التي كانت تهدف مثلما قلنا في أكثر من موضع الى خلق مجتمع يسوده الإخاء والمود والعدل ولا مكان فيه لغير الحق.

نخلص من هذا إلى أن النقد الأدبي في صدر الإسلام كان عاملاً موجهاً ومسدداً لخطى الحركة الشعرية لتتجاوب مع مبادئ الدعوة وغاياتها حتى يكون الشعر أداة تسهم إسهاماً فعالاً في بناء المجتمع وتنشئته على الخير والحق والعدل.

انتهى

د/ عبد القادر هنى

الهوامش

1- سورة النحل الآيات: 57، 58، 59
2- سورة آل عمران الآية 154
3- سورة الأنعام الآية: 136
4- الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص 78- 79
5- العمدة لابن رشيق 1/26
6- العمدة لابن رشيق 1/27
7- العمدة لابن رشيق 1/28
8- سورة الحجرات الاية 10
9- تاريخ النقد الأدبي عند العرب د/ عبد العزيز عتيق ص: 52
10- دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص: 16
11- العمدة لابن رشيق 1/94
12- الشعر والشعراء لابن قتيبة ص: 181 وراجع العمدة 1/53
13- راجع كتابه دراسات في نقد الأدب العربي ص: 88
14- سورة الأعراف الآية: 199
15- دراسات في نقد الأدب العربي د/ بدوي طبانة ص: 88 (لم يخرج الحديث)
16- سورة يوسف الآية: 21
17- العمدة لابن رشيق 1/27
18- شرح الأشموني 1/59 عن دراسات في نقد الأدب العربي ص: 88
19- سورة القصص الآية: 88
20- سورة الرعد الآية: 14
21- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني 4/133
22- نفس المصدر 8/240
23- النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي رسالة دراسات معمقة إعداد ختير عبد ربي ص : 64
24- سورة الشعراء الآيات 224. 225، 226
25-العمدة لابن رشيق 1/ 31-32
26- الموشح للمرزبانى ص 100-101
27- سورة التوبة الآيتان: 21، 22

28- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني 144/4
29- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني 14/ 141
30- البيان والتبيين للجاحظ 195/2
31- راجع تاريخ النقد الأدبي عند العرب د/عبد العزيز عتيق ص: 70
32- نفس المرجع ص: 75
33- راجع ذلك في الأغاني 186/2، العقد الفريد لابن عبد ربه 318/5 وانظر ماكتبه الدكتور عبد العزيز عتيق بهذا الشأن في كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص 72- 73
34- راجع الأغاني 2/ 189 والشعر والشعراء ص: 207
35- العمدة لابن رشيق 1/ 52 وراجه الشعروالشعرآء 210
36- العمدة لابن رشيق 52/1
37- العمدة لابن رشيق 1/ 28
38- جمهرة أنساب العرب ص: 35
39- البيان والتبيين للجاحظ 180/2
40- جمهرة أنساب العرب ص: 36
41- العمدة لابن رشيق 28/1
42- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني 6/20
43- البيان والتبيين 94/1 والأغاني 22/ 329
44- النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي رسالة دراسات معمقة إعداد ختير عبد ربي ص 105
45- الأغاني لأبي الفرج ط دار مكتبة الحياة 313/1
46- طبقات فحول الشعراء ص: 40
47- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني 308/21
48- العمدة لابن رشيق 29/1
49- تاريخ النقد الأدبي عند العرب د/ عبد العزيز عتيق ص: 92
50- نفس المرجع ص: 94
51- أي يمشي متبختراً
52- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ط: دار الكتب 2/ 192- 193
53- راجع تاريخ النقد الأدبي عند العرب د/ عبد العزيز عتيق ص 96- 97